المحاضرة الخامسة

من محاضرات مدخل الى علم التفسير

مدرس المادة

م.م محمد قحطان عدنان

من اداب التفسير ايضا

كما ذكرنا بعض من آداب التفسير في المحاضرة السابقة وهذه ماتبقى منها.

سلامة القصد:

أي الرغبة في الوصول إلى الحق؛ فلا يتوقف عمل المفسر على مجرد الفهم والإدراك لمعاني آيات القرآن، بل لابد من أن تتوفر فيه إرادة ورغبة الوصول إلى الحق، ويتحقق هذا الأدب إذا استطاع المفسر ،أن يتنزه عن الهوى، ويخلص نفسه من التحييز والتعصب القومي، أو العنصري، أو العقدي، أو غير ذلك مما يقف حاجزا بين الإنسان وبين إدراك الحقيقة.

قال السيوطي (تـ: ٩١١ هـ) في التحبير فصل من يقبل تفسيره ومن يرد، ولا يقبل ممن عرف بالجدال والمراء والتعصب لقول قاله، وعدم الرجوع إلى الحق إذا ظهر له، ولا من يقدم الرأي على السنة، ولا من عرف بالمجازفة وعدم التثبيت، أو بالجرأة والإقدام على الله وقلة المبالاة.

وقد ذكر النووي (تـ: ٦٧٦ هـ) من أقسام المفسرين بالرأي من غير دليل صحيح، من يحتج بآية على تصحيح مذهبه، وتقوية خاطره، مع انه لا يغلب على ظنه أن ذلك هو المراد بالآية، وإنما يقصد الظهور على خصمه ومنهم من يقصد الدعاء إلى خير، ويحتج بآية من غير أن يظهر له دلالة لما قاله.

والرغبة في الوصول إلى الحق من أولى الآداب بأن يحرص على تحققها، وقد اصطلح عليها أبو طالب الطبري- حين تكلم عن آداب التفسير، بصحة المقصد، فيما يقوله المفسر لكتاب الله ليلقى التسديد

الزهد في الدنيا.

وهذا الأدب من شروط ،سلامة القصد، الذي سبق، والذي يفرضه كون الإنسان المشغول بالدنيا تتوجه همته إليها، وقد ينحرف في تفسير القرآن إلى ما تهواه نفسه لا ما يدل عليه كلام الله.

قال صاحب كتاب ،المباني، أن مما يحتاج إليه المفسر، أن يكون من أهل الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، فإن كل واحد محوط بما هو طالبه، وينحو نحو ما هو همته ورغبته، فمن رغب في الدنيا انصرفت همته إليها، وسيكون ما يسبق إلى قلبه من وجوه ما يريد أن يتكلم فيه على وفاق ما في همته، وما أخوفه إذ ذاك أن يصرف كتاب الله تعالى إلى ما تهوى نفسه، فيضل بنفسه ويضل غيره. فوجه ارتباط ،الزهد في الدنيا، بسلامة القصد عند المفسر أن هذا الزهد يحول بينه وبين ما قد تميل إليه نفسه، ويجنح له هواه، فيظن أن ذلك من مراد ربه في القرآن، ولذلك قال أبو طالب الطبري ، وإنما يخلص له القصد إذا زهد في الدنيا، لأنه إذا رغب فيها لم يؤمن أن يتوسل به إلى غرض يصده عن صواب قصده، ويفسد عليه صحة عمله.

حدة الذكاء.

فمن كان بليد الفهم ضعيف الذكاء قل أن يبدع في صنه من أصناف المعارف الإنسانية، فكيف بعلم تفسير القرآن!! ثم إن تفسير ما لم يرد فيه نص إنما يعتمد فيه على ما يدل عليه مطلق اللغة، أو ما يقتضيه معنى الكلام، والنظر في هذا الأخير لا يتسنى إلا لمن كان حاد الذكاء سريع البديهة.

وإذا علمنا ذلك، فإن من شروط المقدم على التفسير ،أن يكون جيد القريحة، ذكي الفهم، قوي الفكرة، فإن البليد قد يتقاعد عنفهم ما يبين له، فكيف يستنبط ما لم يبين له.

ومن له اطلاع على مصنفات العلم يدرك أن الوقوف على لطائف الكتاب العزيز لا يتيسر إلا لمفسر دقيق الفهم، عميق التفكير، متميز البصيرة، فظاهر عبارة القرآن يستوعبها كل متكلم باللسان، أما دقائق المسائل ولطائف ما تشير إليه الآيات فلا يقف عليه إلا من كان حاد الذكاء من المفسرين الذين يتقون الله في سرهم وعلانيتهم.

التأدب مع القرآن.

ويقضي ذلك تجنب استعمال بعض الأوصاف عند الكلام عن آي القرآن، وأيضا عدم التحمل في صرف دلالة الآية عن الظاهر الذي تدل عليه.

فمن التأدب مع القرآن.

* الاحتراز عن ذكر لفظ الحكاية عن الله تعالى.

* تجنب إطلاق الزائد على بعض الحروف الواردة في القرآن.

قال الزركشي (تـ: ٧٩٤هـ):وكثيرا ما يقع في كتب التفسير(حكى الله تعالى) وينبغي تجنبه.

قال الإمام أبو نصر القشيري في كتابه ،المرشد، قال معظم أئمتنا؛ لا يقال: كلام الله يحكى، ولا يقال حكى الله، لأن الحكاية الإتيان بمثل الشيء، وليس لكلامه مثل؛ وتساهل قوم فأطلقوا لفظ الحكاية بمعنى الإخبار، وكثيرا ما يقع في كلامهم إطلاق الزائد على بعض الحروف، كـ، مـا، في نحو (فبما رحمة من الله)، والكاف نحو (ليس كمثله شيء)(٣٨) ونحوه؛ والذي عليه المحققون تجنب هذا اللفظ في القرآن، إذا الزائد لا معنى له، وكلام الله منزه عن ذلك.

ومن التأدب مع القرآن عدم التحمل والتكلف في صرفه عن ظاهر ما يدل عليه، أو دعاء المجاز لفتح باب التأويل المذموم، ففي قوله تعالى: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون).الحشر ٢١.

قال الزمخشري (تـ: ٥٣٨هـ) في الكشاف : هذا تمثيل وتخييل..، والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه. وعلق على تفسيره ابن المنير (تـ: ٦٨٣ هـ) في الانتصاف فقال ، قال أحمد؛ وهذا مما تقدم إنكاري عليه فيه، أفلا كان يتأدب بأدب الآية حيث سمى الله هذا مثلا، ولم يقل: وتلك الخيالات نضربها للناس، ألهمنا الله حسن الأدب معه..

وفي قوله تعالى: (إنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا). عبسى ٢٥. قال الزمخشري: وأسند الشق إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب ، قال ابن المنير معقبا: قال أحمد: ما رأيت كاليوم قط عبدا ينازع ربه، الله تعالى يقول: (ثم شققنا)، فيضيف فعله إلى ذاته حقيقة...، والزمخشري يجعل الإضافة مجازية من باب إسناد الفعل إلى سببه، فيجعل إضافة الفعل إلى الله تعالى من باب إضافة الشق إلى الحراث لأنه السبب...، وإذا جعل شق الأرض مضافا إلى الحراث هو الذي صبب الماء، وانبت الحب والعنب والقضب حقيقة، وهل هما إلا واحد؟.

موهبة التفسير.

وهذه الموهبة حصلها المفسر إذا راقب الله في معتقداته وأفعاله، ولزم حدود التقوى، فهذا الأدب لا يمكن تحصيله إلا بالإيمان والعمل الصالح.

قال السيوطي: وهو علم يورثه الله لمن عمل بما علم، وإليه الإشارة بحديث ،من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

ثم قال: ولعلك تتشكل علم الموهبة وتقول: هذا شيء ليس في قدرة الإنسان؛ وليس كما ظننت من الأشكال، والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد.

قال الشيخ أبو شبهة: أقول: وعلم الموهبة ثمرة من ثمرات التقوى، والتقوى لها معنيان:

معنى نفسي: وهو خشية الله ومراقبته في السر والعلن، وهذا ما أراد النبي (صلى الله عليه وسلم) حينما قال: التقوى ها هنا، ثلاث وأشار إلى صدره.

ومعنى ظاهري: وهو الاستقامة على الدين، وذلك بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وقد تسمو بصاحبها، فتصل به إلى حد فعل النوافل والمستحبات أيضا، وإتباع مكارم الأخلاق، وتوقي الشبهات خشية الوقع في المآثم والمحرمات.

والتقوى بمعنييها لابد منها لمن يتصدى لشرح كتاب الله، وفي هذا المعنى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فراقانا)،(٢٩الأنفال) أي معنى في القلب يفرق به بين الحق والباطل.

وينزه نفسه وعمله عن الأغراض الأخرى غير ذلك، والوصول إلى هذه المرتبة يتطلب تحصيل علم شرعي وعمل بمقتضى هذا العلم.

وأيا كان علمه لا يؤبهاه للكلام في كتاب الله إن كان في سلوكه مخالفا لمقتضى العلم الذي يحمله.

وإذا اجتمع للإنسام العلم والعمل، فقد ارتقى إلى درجة التقوى التي تعصمه من التقول في تفسير القرآن بمحض الهوى، وفي ذلك قال ابن العربي المعارفية (تـ: ٥٤٣هـ): (والضابط لهذا كله أن يكون الناظر في القرآن يلاحظه بعين التقوى، ولا يميل به لرأي أحد للهوى، وإنما ينظر إليه من ذاته ابتغاء على الله ومرضـــــــاته)